من وحى الحرب

يا سيدى ...

للأستاذ كامل محمود حبيب

[تاق أحدم أبيض بضاً ، يلغ فى الباطل ملغا ، ينفض مذرويه ، ويضرب أصدريه ؛ يقول : هاأنا فاعرفونى . قد عرفناك فمقتك الله ومقتك الصالحون] الحسن البصرى

أهلاً بك ، يا سيدى ، وسهلاً !

الآن أشرق ظلام القرية بنور وجهك البهى ، فافتح أمامى بابك المغلق وقلبك الموصد ، ودعنى أجلس إليك ساعة أبثك هماً من همى ، وأشكو إليك شجناً من شجونى ؛ فأنا عبدك وخادمك منذ أن كان أبوك وأبى ...

دعنى أجتلى طلعتك الوضاحة علّها تزحزح عن صدرى بعض ما فدحه

لطالما طلبت إليك أن تسكن إلينا يوماً أو بعض يوم لتنفث فينا الحياة ، فرميتنى بالنظرة الشزراء والكلمة القاسية ، تشمرنى خيبة الرجاء وضيعة الأمل

وتصرمت سنوات ، يا سيدى . والآن ، جزى الله الشدائد كل خير ، فهى أرسلتك إلينا لتسكن القرية وترى ... فأهلاً بك ، يا سيدى ، وسهلاً .

***

ماذا ، يا سيدى ، ماذا ؟

ماذا وراء هذه السحابة السوداء التى تظلل وجهك الصبوح؟ وماذا وراء هذا الفتور الذى يغمر جنبات حياتك ؟ وماذا وراء هذه النظرة الفاترة الحائرة ، وهذه الإطراقة الطويلة الصامتة ؟

إنك تأخذ وتذر فى صمت ، وتجادل وتناقش فى ملل ، وتأمر وتنهى فى تكسر ، وتسمل وتدع فى ضيق ؛ فاذا ... ماذا أصابك ، يا سيدى ؟

أتضيق نفسك بهذا الفضاء المتفسح وهو مسرح القلب ومراحه ، وتنزعج أذنك من خرير ماء الغدير المنساب خلال الوادى وهو النغم الساحر توقعه الطبيعة على قيثارتها الإلهية ؛ ويرتد طرفك دون هذا البساط السندسى الجميل فى ضجر وهو روح الجنة على الأرض ؛ وينغلق صدرك دون هذا الهواء النقى وهو معنى من معانى الشباب الدائم ؛ وتتململ وأنت فى ثوبك الفضفاض وهو يشعرك بحلاوة الحرية ؟

لا جرم ، فأنت لا تجد هنا بهجة الروح ، ولا هوى النفس ولا نور العين ، ولا ... ولا شفاء القلب

غير أنك ، يا سيدى ، حللت أهلاً

***

برغمك هبطت بيننا لتعيش عمراً من عمرك ، فهل ترسل نفسك على سجيّتها لتشعر ببعض ما أقاسى ؛ فأنا الفلاح الصغير الفقير ، أكابد شدة الحياة ، وشظف العيش ، وذلة الإهمال ، وحيرة الضياع

منذ سنوات ، وأنت تقسو على ، فتنتزع منى قوت عيالى ومساك روحى فى غير رحمة ولا شفقة ، لتشبع رغبات الدنية الجائعة وحاجات الحضارة المزورة ، وأنا أحمل ثقل ظلمك فى صبر لأنك أنت سيدى

منذ سنوات ، وأنا أقف بباب قصرك ساعات « كالشحاذ » أطمع أن أفوز بكلمة ، فلا أجد السبيل إليك ، لأن حاجزاً من الرفاق يحول بينك وبينى

واندفعتَ فى سبيلك ، فركبك الدَّين ؛ وأنا أنادى ، فلا يبلغك سوى الضئيل ، لأن فنوناً من الشهوات تشغلك عنى وعن الأيام ، وقصر أبيك المشيد فى الضيعة يتداعى رويداً رويداً ، وأنا أناشدك أن تمنحه فضل مالك ، فأعرضت عنى فى أنفة وكبرياء ؛ وشمخت بأنفك ، فقلتُ : يا سيدى ، إن الغيب مستور ، ومن يدرى ، لعلك تحتاج إليه فى وقت ما . فقلتَ : هيه ، أيها الغبى ، أفتبتنى أن أسكن القرية وأنا هو أنا ... فسكت وفى قلبى حسرات على أن ينهد هذا الجمال الرائع

لقد تأنق أبوك فيه ، فكان فناً من الفن ، وكان مشرق العز ومهبط النعيم ؛ فلما سيطرت عليه اطَّرحته ، وطرت إلى بلاد تسميها أنت بلاد النور ، تضيف إلى جهلك جهلاً آخر ، وتركتنا هنا نتكفأ فى بلاد الظلام والفاقة

إن الذى دفعك إلى هناك هو العلم الذى يعلم الجهل ، وهو العقل الذى يعلم الجنون

والآن جئت ، يا ابن القرية ، برغمك لتردى فى قرار مكين

وثارت بك سورة السلطان فرحت تتسخط على هذا الجهل الشامل ، ونسيت يوم أن ذهبتُ أستجدى جاهك علَّ ابنى يجد مكاناً فى المدرسة ، فهررتَ فىّ وأنت تقول : حتى أنتم ... حتى أنتم ، أيها الفلاحون ، تريدون أن تتعلموا ... ؟ فرجعت والخيبة تشيع فى جنبات نفسى

فهل يسرك الآن هذا الجهل الذى تتفهق به القرية ؟

* * *

أتحس فى قرارة نفسك أننى إنسان مثلك ؟ كلا

بل أنت كنت خاوياً نفخت فى إهابك الرتبة وسما بك اللقب

هذا اللقب غرسته يد الكبرياء ، وسقته نزوة الخنزوانة ، وتعهدته ثورة النعرة

هو النبتة اللئيمة التى خلقتها أيام الاستعباد ، وترعرعت فى حضن الاستبداد

هو القيد البغيض والغُل القَمِل

هو العصا السحرية التى تخضع لها الأعناق ، وتتملقها الألسن ، وتهفو نحوها الرغبات ، وترنو إليها الأبصار ، وينفتح أمامها الباب المغلق ، ويذل لها القلب المتغطرس ، و ...

واللقب هو سِما الخسف والهوان ، وعلامة الغشم والحيف ، فتى ... متى الخلاص ؟

لا تلمنى ، يا سيدى ، فاللقب هو عدوى الذى أفرق منه : لأنه بث فيك العظمة والكبر ، وعلمنى الصغار والضعة ، ونفث فيك الغطرسة والعجب ، وأوحى إلىّ بالاستكانة والاستخذاء ، وسما بك إلى الخيلاء والصلف، وانحط بى إلى التصاغر والخنوع . وهو فتح أمامك مغاليق الحكومة وأوصدها فى وجهى ، وهوّن عليك أمر الرزق وأعضله علىّ ، وألان لك الحياة ورمانى منها فى مهمه حَزن

فلا تلمنى إن أنا مقتُّه من جماع قلبى

ولكنك أنت ، يا سيدى ، حللت بيننا أهلاً

* * *

تعال معى ، يا سيدى ، نجلس هناك على الحصباء تحت الظل الوارف ، إلى جانب الساقية . تعال معك نجد فى نواح الساقية وأنين الثور وشكواى أنا الفلاح برداً يطفئ ثورتك

تعال واشهدنى وأنا بين الطين والماء ، بين الفأس والمحصدة ، بين الساقية والطنبور ، بين أرجاء أرضك التى تسعد بمحصولها ، أسهر الليل وأقوم النهار ، أعنّى النفس لتجد أنت لذتك . تعال علَّ قلبك يتفتح لى فألمس بعض عطفك

تعال واقترب منى . لا تخش جسمى القذر ولا ثيابى الرثة الوضيعة

تعال ، انزل عن كبريائك ساعة واجلس إلىّ وذق طعامى ونم إلى جانبى ، ولا تأنف ولا تتمعض ولا تدع الحسرة تتسرب إلى قلبك فأنت رجل عظيم تستطيع أن تصنع شيئاً

ثم تعال إلى دارى وتأمل أهى خير أم حظيرة البهائم ؟

إن شيئاً من هذا لا يؤلمنى بقدر ما آلمنى أن أراك تشكو الريف وتضيق بالقرية وتفزع عن ضيعتك التى تغل عليك الآلاف

ولكنك الآن ، يا سيدى ، حللت هنا أهلاً

* * *

هذا هو وطن الشدة فاحبه بعض رعايتك ، وهيىء منه فى شتائك لصيفك ، ولا تدع صمرك يطغى على عقلك

إن الريف يمرح بك ويبسم لمقدمك ويتلقاك بين ذراعيه فى فرحة ، فليكن له منك حسن الجزاء

لقد تفتق ذهنك ، وأنت بيننا ، عن ألف مشروع ومشروع ، ورأيتك تمسك بالقلم – تارة – ترسم على القرطاس ، وتمسك بالعصا – تارة أخرى – تخط على الثرى ، فهل تعمل أم هو الرخاء يمحو آثار الشدة ، فتنطلق – بعدُ – على سننك يجرفك الترف الذى أفسدك وأفسدنا

* * *

وأنت – أيتها الحرب – رعاك الله وأدامك لأنك علمت سيدى أن له داراً وأهلاً وضَيعة يطمئن إليهم ساعة من زمان ، وأنت أزحت الغشاوة التى كانت تحجب بصره عنى ، وأنت ... وأنت ...

فرعاك الله – أيتها الحرب – وأدامك

(مغتبر) كامل محمود حبيب